في سديم المنافي، وفي عتمة الاحتلال، في اغتراب عن المكان ـ الوطن، وفي اغتراب مضاعف داخل المكان ـ الوطن، المحكوم بالاحتلال[٢١]. وإذا كانت درامية الحياة في كلا المكانين: الوطن المحكوم بالاحتلال، والمنـافي، قد فرضت أسئلة شديدة الدرامية، كسؤال التعرف على هوية الذات الفردية والجماعية، وسؤال علّة الوجود، ومغزى الحياة في عالم يمضي مسرعاً بينما الفلسطيني يقف في عرائه أمام قدر غامض، فإنّ الاجابة الفلسطينية الفردوية عن هذه الاسئلة، بتطورها وتفجيرها لأسئلة جديدة، أعطت تنويعاً دراميّاً ونموّاً جعل من وقوف الفلسطيني في ظاهر الحياة والواقع، حركة شديدة التوتر، في باطن الحياة، وفي أعمق أغوار الذات، وهو الامر الذي نجده جلياً في الروايات الثلاث الاولى، التي بدأت من البحث عن الذات وعن حضورها في العالم، خارج الذات وخارج الوطن، فانتهى بحثها الى موت مهين «رجال في الشمس» ثم غيرت اتجاهها فراحت تبحث عن الذات، وعن حضورها في العالم، داخل الذات، وداخل الوطن، جاعلة من الذات مجالاً حيوياً للسؤال والبحث عن اجابته؛ موضوعاً للتأمل والاكتشاف والكشف، ومن الوطن مجالاً حيوياً لوقع الخطوات التي تحفر مجراها فوق ترابه، فيلتقي الفلسطيني عدوّه، غاصب وطنـه، سارقه، وبهذا اللقاء ينبثق زمن آخر، هو «زمن الاشتباك» الذي تبدأ الذات الفلسطينية، مع بداياته، طريقها في العثور على أصوب الاجابات، وكأنما الدخول الى الوطن، دخول الى الذات، ، وكأنما الوطن لا يثق بمن يدخل اليه وهو خارج ذاته، أو هو يدفعه الى الدخول اليها، فيكون هو دائماً، أي الوطن، المجال الحيوي الوحيد لتحقيق الهوية، بمغزاها العميق، وهو وحده الذات الكلية العميقة للانسان الفلسطيني: ماضياً وحاضراً، ومستقبلاً مفتوحاً على أفق لا يُحد. وهذا شيء مما تقوله «ما تبقى لكم» وما تقوله «عائد الى حيفا». واذا ما كانت الرواية الاخيرة قد أكدت، عبر تجربة شديدة الدرامية، أن النضال خلّاق هوية، وأنه الطريق، فإن العبور الجماعي: الذهاب الجماعي الى الوطن، عبر النضال، هو ذهاب نحو الالتحام بالذات الكلية الجامعة، خلوصاً من تشظيات الذوّات وهوياتها الممزقة، وكأن تماسك الهوية الفردية لا يكون، ولا يتحقق، الّا بكونها تجلياً عميقاً للذات الكلية الجامعة. وهذا هو بالضبط ما يقف وراء «أم سعد» كشخصية ملحمية، تعكس من خلال خصوصيتها وتفردها، وارتباطها الجذري بالوطن، وحدة الخاص والعام؛ فتوجز في تكوينها سمات الشعب الذي تنتمي اليه. ولئن كانت أم سعد صوتاً صافياً للطبقة الباسلة، المسحوقة والفقيرة والمرمية في مخيمات البؤس، فإنها، في الوقت نفسه، كانت حاضنة صادقة للاصوات التي تجيء من مختلف فئات الشعب وطبقاته، توحّدها وتضفرها في سياق ملحمي واحد؛ ويكفي ان نشير، هنا، الى حميمية الصلة التي ربطت الراوي؛ المثقف الثوري البرجوازي، بـ «أم سعد» كأمٍ ومدرسة وصوت للشعب، وكيف كانت ترى إليـه كإبن وكناطق باسم وجدانها الأصيل. لقد جسدت «أم سعد» الشعب والوطن في لحظة التحامهما الملحمي حيث لا يمكن لقوة، مهما بلغت، أن تفصل بينهما مرة أخرى.

إن تحول الاجابات الفردية، أو الكشوفات الفردية للاجابات، عبر تراكماتها وتحولاتها النوعية، الى اجابة جماعية، ثم الانخراط الجماعي في حركة جماعية تحيل هذه الاجابات الى واقع يتواصل، يقتضي، كي يتم تحويله من «الواقع» الى «الفن» بناء ملحمياً يتصاعد ايقاعه مع تصاعد حركة النضال وهي تجيب عملياً عن سؤال الهوية والطريق، وذلك لأنّ الأدب والفن هما «إعادة خلق للواقع على اعتباره امكانية... [و] إن أي شيء لا يمكن ان يوجد في الواقع لا يمكن ان يكون أدبياً»[٢٢]. أي أن «الجمال لا يتحقق في الفن إلّا إذا تحقق الاصل الذي يصوغه في الواقع فعلاً»[٢٣]. فهل كان لرواية «أم سعد» أن توجد في بُنيتها الملحمية لو لم يكن الواقع الذي سعت الى تحويله، فنياً، واقعاً ملحمياً؟ أو لم يكن التحـول الذي شهـده الواقـع الفلسـطيني بالخـروج من «الزمن المـأسـاوي» الى